لا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم

بسم الله الرحمن الرحيم

الصراع العثماني –الايراني في القرن الثامن عشر واثره على العراق[1]

غزوات نادر شاه على العراق ١٧٣٢-١٧٤٣

كان الصراع قائما بين الحكومة العثمانية والحكومة الايرانية للسيطرة على الاقسام الشمالية والشرقية من العراق ، وتهديد القوات الايرانية بغداد العاصمة في اوقات اخرى فضلا عن مهاجمة البصرة من الجنوب .

وبعد ان اصبح نادر خان وصيا على العرش الايراني ، أخذ يستعد للسيطرة على بعض المناطق التي فقدتها ايران ، للدولة العثمانية وفي خريف ١٧٣٢ تحركت قوات ايرانية بقيادة نادر لمحاربة العثمانيين إذ بعث برسالة الى احمد باشا والي بغداد يتوعده فيها وينذره بانه زاحف نحو بغداد للسيطرة عليها ، أسرع احمد باشا بتحصين مواقع الحدود ، وعزز حامياتها في زهاب وقصر شيرين ، ثم أصلح مراكز الدفاع الموجودة في سور بغداد وأخبر الباب العالي بسرعة قرب الخطر.

اما نادر خان فقد اقترب بقواته التي تقدر بمئة الف مقاتل من الحدود العراقية ، وبدأ بمهاجمة المواقع التي قام احمد باشا بتعزيزها واحتل موقع زهاب ، ثم بدأ التوغل في الاراضي العراقية ، وارسل قسم من قواته لغزو كركوك ، لكن القوات الايرانية واجهت مقاومة فعجزت عن احتلالها ، وفي الوقت نفسه كانت هناك قوات ايرانية تشن هجوما على الموصل ، الا ان واليها حسين باشا الجليلي تمكن من صدها والحاق الهزيمة بها . فاضطر الى التقهقر والالتحاق بالجيش الرئيسي الذي كان قد اقترب في زحفه من بغداد .

وفي أواخر كانون الاول ١٧٣٢ بدأ نادر حصاره على الجانب الشرقي من بغداد ، وفي كانون الثاني ١٧٣٣ بدأ أول هجوم على اسوار بغداد لكنها لم تحقق شيء وفي شباط من العام نفسه حدث اشتباك آخر بين القوات العثمانية والقوات الايرانية ،

[1] للتفاصيل يراجع: علاء نورس ، العراق في العهد العثماني ١٧٠٠-١٨٠٠، بغداد ، ١٩٧٩

١٧٣٢

١٧٣٣

انسحبت فيها القوات العثمانية الى داخل مدينة بغداد بعد تكبيدها خسائر كبيرة تاركة مدافعها ومعداتها في ساحة المعركة .

لقد اصبح الموقف في بغداد حرجا جدا ، بعد ان احكمت القوات الايرانية الحصار حولها ، وبدأت الهجمات تتوالى من الجانبين وكانت الحالة داخل المدينة المحاصرة مضطربة ، ويأس الناس من امل وصول الامدادات العسكرية من الباب العالي كما اخذت ويلات المجاعة شكلاً مروعا في المدينة وانتشرت الاوبئة فيها ، وبالرغم من كل ذلك فان احمد باشا والي بغداد كان رابط الجأش قوي العزم ، وكان ينتظر وصول قوات عثمانية من العاصمة استانبول . وقد عاد الامل من جديد الى الاهالي والقوات المحاصرة في بغداد عندما وصل الموصل في اوائل حزيران ١٧٣٣ طوبال عثمان باشا الصدر الاعظم السابق ، على رأس جيش تعداده ثمانون الف مقاتل ، وبعث برسالة الى أحمد باشا يخبره فيها بانه قادم لنجدته فاشتدت العزائم واستمات الحاضرون في الدفاع .

وبعد ان علم نادر بوصول قوات عثمانية لنجدت والي بغداد شدد الحصار على المدينة ثم زحف على راس قوة كبيرة مؤلفة من خمسين الف مقاتل لمجابهة القوات العثمانية القادمة قبل وصولها الى بغداد ، وتاركا اثنى عشر الف من قواته لمواصلة حصار بغداد .

وفي صباح يوم التاسع عشر من تموز ١٧٣٣ التحمت قوات الطرفين في معركة كانت في ضراوتها واحدة من اشد المعارك التي خاضها العثمانيون والايرانيون ، تمكنت قوات نادر خان في بدايتها من دحر خيالة العثمانيين ، الا ان تقدم قوة المشاة العثمانية ، اعاد التوازن الى المعركة ، وبعد قتال مرير في صيف تموز دام تسع ساعات متواصلة انتهت المعركة بهزيمة قوات نادر وارسلت رسائل الظفر من ميدان المعركة الى السلطان العثماني ، وباشا بغداد وانسحب نادر خان مع ما تبقى من قواته عن طريق بهرز باتجاه الاراضي الايرانية ، وقام احمد باشا بمهاجمة القوة

الايرانية المرابطة عند اسوار بغداد فقتل معظم افرادها ، فتخلصت بغداد من الحصار الذي عانت منه الويلات طيلة سبعة شهور ، ابدى فيها احمد باشا صمودا عظيما لولاه لاستسلمت بغداد في وقت مبكر .

لم يؤدي انتصار القوات العثمانية الى السلام المنشود فقد عزم نادر شاه على القيام بمحاولة اخرى للهجوم على بغداد ، وبعد ثلاثة اشهر من هزيمته استطاع نادر شاه ان يعيد بناء جيشه وعبر الحدود العراقية وتوقف عند همدان التي وصلها في الرابع من آب ١٧٣٣ ، والتحقت به بعض فرق جيشه التي كانت قد تشتت ، أما بالنسبة للجيش العثماني ، فان طوبال باشا قام بتسريح الجيوش الاجيرة الى ولاياتها العربية والكردية ، اعتقادا منه ان الجيوش الايرانية لا يمكن ان تقوم لها قائمة بعد تلك الهزيمة ثم انسحب من معسكره قرب بغداد عائدا الى استانبول .

أما أحمد باشا والي بغداد فقد كان يتوقع هجوم نادر شاه مرة اخرى على المدينة ، فرمم سور بغداد واصلح الخندق والقلعة ، وطلب نقودا وقوات من الحكومة العثمانية ، للاستعداد ومواجهة هجوم نادر شاه ، ولكن لم يحصل على شيء .

وفي الثاني من تشرين الاول ١٧٣٣ زحف نادر شاه من همدان ، للقيام بهجوم جديد على بغداد ، ولكنه قرر الاتجاه الى كركوك لمواجهة قوات طوبال باشا في المعركة وقتل ما يقرب من ثمانية الاف من افضل القوات العثمانية ، وغنم الايرانيون جميع الامتعة والمدفعية ووسائل النقل للقوات العثمانية .

وحين سمع احمد باشا والي بغداد بهزيمة الجيش العثماني ومقتل طوبال باشا ، استعد لمقاومة القوات الايرانية ، واصدر أوامره بالسماح للذين لا يقوون على تحمل الحصار بمغادرة المدينة .

في ظل هذه الاحداث وعند وصول نادر باشا اسوار بغداد وتطويقه لها ، تلقى أخبارا تفيد بان حاكم اقليم فارس قد قام بثورة لمصلحة الصفويين ، وانه نادى بطهماسب شاها على البلاد ، مما اضطره الى طلب الصلح من والي بغداد بشرط

Scanned with CamScanner

ان تعاد اليه المواقع التي استولى عليها العثمانيون بعد هزيمة طهماسب قرب همدان لقد كان طلب نادر شاه الصلح بمثابة نجدة لباشا بغداد ، وبعد مفاوضات توصل الطرفين الى عقده معاهدة في يوم التاسع عشر من كانون الاول ١٧٣٣ ، اعتبرت فيها الحدود بين الدولتين هي تلك التي خططتها معاهدة زهاب عام ١٦٣٩ ، ونصت على اطلاق سراح الاسرى من الجانبين ، واعادة المدافع المستولى عليها ، وكذلك تسهيل زيارة الحجاج الايرانيين للعتبات المقدسة . وبعد ثلاثة ايام من توقيع المعاهدة عاد نادر شاه الى بلاده لإخماد الثورة التي نشبت هناك وبعد ان قضى نادر على الثورة في ايران تمكن من استرداد بعض المدن التي استولى عليها العثمانيون والروس في شمال ايران .

وفي الوقت الذي كانت فيه القوات الايرانية تخوض حربا مع العثمانيين في شمال ايران ، لاستعادة المدن التي كانت تحت سيطرة العثمانيين ، كان الاسطول الايراني يقوم بمحاولة للاستيلاء على البصرة مستغلا اضطراب الاوضاع فيها بسبب اندلاع القتال بين العثمانيين والقبائل العربية . وفي نيسان ١٧٣٥ استطاع الاسطول الايراني الدخول الى مياه شط العرب تسانده قوة برية ايرانية مؤلفة من ثمانين الف جندي ، غير ان قائد الاسطول الايراني لم ينتظر وصول القوة البرية المساندة فتقدم اعلى النهر وعندئذ طلب متسلم البصرة من ممثل شركة الهند الشرقية الانكليزية في البصرة مساهمة السفينتين الحربيتين العائدتين للشركة في صد الهجوم الايراني ، وفعلا نجح متسلم البصرة في ارغام الاسطول الايراني من الانسحاب والعودة الى الجانب الاخر . وفي عام ١٧٣٦ عقدت معاهدة بين ايران والدولة العثمانية عرفت باسم معاهدة (القسطنطينية) ضمت في احد موادها ان تكون الحدود بين الدولتين هي تلك الحدود التي وضعت في معاهدة زهاب عام ١٦٣٩ .وخلال السنوات (١٧٣٧-١٧٤٠) انشغل نادر ، بعد تتويجه شاها لإيران في الثامن من آذار ١٧٣٦ ، بفتوحاته خارج ايران ، إذ قاد حملة ضد الافغان ، استولى فيها على قندهار عام

معاهدة القسطنطينية :- وهي المعاهدة التي وقعت بين ايران ودولة العثمانية في عام ١٧٣٦م نصت ان تكون بين دولتين هي تلك الحدود التي وضعتها معاهدة زهاب - ٧

الحمد الله
الحمد الله
الحمد لله
الحمد لله

يا علي مدد
يا محمد مدد

١٧٣٨ ، وعلى كابل وفي عام ١٧٣٩ تقدم لغزو الهند ، واحتل دلهي التي استبيحت ونبح عدد كبير من سكانها ، ثم أتم نادر فتح حوض السند . وهو في طريق عودته الى بلاده ، نحو تركستان فاستولى على بلخ وبخارى فأضفت هذه الانتصارات تعزيزا لشهرته ، فاصبح في قمة المجد والقوة ، وامتدت حدود إمبراطوريته الى اوسع ما كانت عليه زمن الصفويين . وقد اطلق على نفسه بعد هذه الانتصارات لقب (شاهنشاه) أي ملك الملوك .

ومنذ عام ١٧٤١ اخذت العلاقات الايرانية العثمانية بالتدهور الى درجة خطيرة ، فكانت ايذانا بالاصطدام المسلح بينهما من جديد ، وفي تموز ١٧٤٣ عبرت القوات الايرانية حدود العراق الشرقية من جهة مندلي وشهرزور ، وكان نادر شاه قد ارسل مبعوثين الى والي بغداد احمد باشا يطلب منه تسليم بغداد .

ارسل نادر شاه قوة كبيرة الى بغداد تقدر بأربعين الف جندي ، وقد استولى جيش الشاه على جميع قرى بغداد وضياعها ، فاستعد الوالي واهل بغداد للحصار وانتقل اهل الكرخ الى الرصافة ، وفي نفس الوقت كانت هناك قوات ايرانية كبيرة تتقدم نحو البصرة .

اما نادر شاه فقد توغل في شهرزور على رأس مئة وسبعون الفا من جنده ، وفي الخامس من آب ١٧٤٣ وصل كركوك ، واحتلها بعد حصار سبعة ايام ، ثم زحف نحو اربيل واحتلها ، ومن هناك سار الى الموصل لاحتلالها ايضا . وفي الوقت الذي احتل فيه نادر كركوك ، كان الباب العالي قد أمر والي الموصل حسين باشا الجليلي بوضع المدينة في حالة دفاع ، واصدر اوامره الى والي حلب بالتحرك مع قواته لتعزيز قوة الموصل ، وعند وصوله ارتفع عدد رجال حاميتها الى ثلاثين ألفا . وفي العاشر من ايلول ١٧٤٣ شوهدت طلائع القوات الايرانية على مقربة من قرية (بارمجة) شرق دجلة ، على بعد خمسة كيلومترات من مدينة الموصل . وبعد وصول نادر وقواته القرية المذكورة ، عسكر فيها وامر بنصب المعابر على نهر

يا علي

س/ ماهو سبب انسحاب القوات الايرانية من البصرة ؟

دجلة اعلى واسفل الموصل ، كي يكملوا الالتفاف حول المدينة ، وفي نفس الوقت بعث رسولا الى الباشا الجليلي محذرا اياه من بطشه فجاءه الجواب: " وما بيننا وبينك الا السيف ، واذا ارسلت سفيرا آخر نرجعه اليك بلا رأس" .

وكانت الموصل باهلها على اتم الاستعداد للدفاع عن مدينتهم، فالخنادق مهيأة ، والسور اصلحت الاجزاء المتصدعة منه ، والمخازن مليئة بالحبوب .

وبدء الجيش الايراني ، بعد ان احاطوا بالمدينة تماما ، بإقامة المتاريس والاستحكامات ، اذ شيدوا في مواجهة ابراج سور المدينة ، اثنى عشر استحكاما تحتمي فيها مدفعيتهم ، التي كانت تتكون من ١٦٠ مدفعا و ٢٣٠ مرمية هاون . وقد فتحت هذه المدافع نيرانها مدة ثمانية ايام وليالي بدون توقف ، وتصدع السور في عدة اماكن ، ولكن المدافعين كانوا دائما يتمكنون من اصلاحها ، قبل ان يجد الجيش الايراني سبيلا الى النفاذ خلالها .

وحاولت بعض قطعات الجيش الايراني التسلل الى مدينة الموصل الا ان المدافعين كبدوهم خسائر فادحة ، كما صدوا بعنف متسلقي السلالم التي نصبت على السور . ففشلت القوات الايرانية في محاولة النفاذ الى المدينة وتكبدوا عددا كبيرا من القتلى .

وبعد ان وجد نادر شاه ثبات اهل الموصل وصمودهم ، وفقده الكثير من رجاله ونفاذ مؤنته ، يئس من امل الاستيلاء على المدينة وادرك عدم جدوى القتال ، فاضطر الى طلب الصلح ، ولا سيما وان انباء مثيرة للقلق وافته من بلاده عن ظهور مدعين اثنين بالعرش الايراني ونشوب اضطرابات في اقليم شيروان .

ارسل الباشا الجليلي الى نادر شاه ، الذي فاتحه بالصلح ، وفدا مؤلفا من قاضي الموصل والمفتي واحد وجهاء المدينة ، وتم عقد الصلح ومن ثم تبودلت الهدايا الثمينة.

Scanned with CamScanner

وفي الثاني والعشرين من تشرين الاول ١٧٤٣ انسحب نادر شاه بجيشه الى كركوك بعد حصار للموصل دام اكثر من اربعين يوما ، ثم توجه الى بغداد ، تاركا معظم جيشه في قرة تبه ، وعند وصوله اليها عقد صلحا مع واليها احمد باشا الذي اشترط عليه العودة الى بلاده .

ولما كانت هناك قوات ايرانية تحاصر البصرة ، فقد اصدر نادر اوامره فورا برفع الحصار عنها ، فانسحبت في السابع والعشرين من تشرين الثاني ١٧٤٣ بعد حصار دام اكثر من ثلاثة اشهر . وكانت خاتمة المطاف في علاقات نادر شاه مع الدولة العثمانية ان نادر شاه قتل في العشرين من حزيران ١٧٤٧ . وقد حال هذا الحادث دون اتمام مراسيم تبادل السفراء . تلك المراسيم التي اتفق عليها الطرفان[1].

كانت هذه الحروب بين القوات الايرانية والقوات العثمانية على ارض العراق قد اثرت سلبا وبشكل كبير على الاوضاع الاقتصادية والاجتماعية إذ انها لم تسمح للولاة العثمانيين بتوجيه جهودهم للإصلاح والبناء وتقديم الخدمات للعراقيين. كما انها ادت ايضا الى تدمير وتخريب عدد من القرى العراقية في الموصل والبصرة والمناطق القريبة من بغداد بسبب هجمات القوات الايرانية المتكررة عليها فضلا عن الخسائر البشرية في تلك المعارك والاضرار التي تلحق بالأراضي والمحاصيل الزراعية في الريف العراقي مع تأثيرها على حركة التجارة الداخلية العراقية .

بعد مقتل نادر شاه حدث صراع على العرش الايراني ادى الى عدم الاستقرار في البلاد حتى سيطر كريم خان الزند على السلطة واصبح الحاكم الذي لا ينازع في بلاد فارس ، واتخذ لنفسه لقب (الوكيل) واستمر كريم خان يمارس السلطان والنفوذ باعتباره وصيا على العرش لمدة اثنين وعشرين عاما (١٧٥٧-١٧٧٩) جاعلا شيراز عاصمة لإيران .

---

(١) جعفر الخياط ، صور تاريخ العراق في العصور المظلمة ، ص١٣٩-١٤٥ ؛ لونكراك اربعة قرون من تاريخ العراق الحديث ، ص١٨٣-١٨٦ ؛ مجموعة مؤلفين ، تاريخ العراق الحديث ، د.ت ، ص ٥٩٠-٦٠٢ .